بين الفن والنقد

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

تدرج الطبيعة بالانسانية في مدارج الرقي والكمال ، وتنهج بها مناهج السمو والتطور ، فتحرص على النافع وتختار الأصلح ، وتجدّد دائماً ؛ فتنقل الناس من حال إلى حال ، وتخرج بهم من وضع إلى وضع ، وما أداتها في هـذا إلا الشخصيات العظيمة ، والنفوس الكبيرة ، والارادات القوية الوثابة ، التي تحمل في أطوائها عظمة الطبيعة وجلالها ، فاذا هي في أعمالها وحياتها ومواهبها برامج سامية للجنس ، وشرائع عالية للنوع ، وعوامل ناهضة بدهماء الناس من ظلمة الخمول ، وحمأة الانحطاط ، ومُثل رفيعة تثير بروعتها في النفوس أعمق الخواطر ، وتلهمها الانشاء والخلق والابداع !

وما الأدب في وضعه الشامل ، ومادته المتصلة بكل شيء إلا دنيا حافلة ، وإنسانية كاملة ، فهو — كما يقول مكسيم غوركي — مرآة الحياة تنعكس على زجاجته المصقولة ، في هدأة الحزن أو ثورة الغضب ، سائر مشاكل الحياة وشعابها المترامية ، وخيوطها المشتبكة ، ومناحيها المتنائية ، كما تنعكس كذلك على أديمه الشفاف كافة رغباتنا وشهواتنا ومشاعرنا وآمالنا ، والجداول العميقة الراكدة لحماقتنا وطيشنا ، وسعادتنا وشقائنا ، وشجاعتنا وفرقنا ، أمام الغد المجهول ، والمصير المحتوم ، ومعاني الحب والبغض لدينا ، وسائر معايب نفاقنا وعار أكاذيبنا ، وسهولة خداعنا ، وركود أذهاننا ، وآلامنا التي لا ننتهي منها ولا تنتهي منا ، وجملة آمالنا الخفاقة اللاهبة لشعورنا ، المتنزية في خواطرنا ... وبالاختصار هو كل ما يحيا به العالم وسائر ما يعتمل وينبض في قلوب البشر ...

فدنيا الأدب هي دنيا الناس تامة كاملة ، يبـرزها لنا الأسلوب المهذب ، ويرسمها التعبير الفني الجميل ، وإن النهج الذي تسلكه الطبيعة في دنيا الناس للسموّ بالانسانية ، والترقي بالعالم ، هو هو بعينه النهج الذي يحتذيه النقد في دنيا الأدب لخدمته وصقله وتهذيبه واختيار الأصلح منه ... كما تفعل الطبيعة تماماً في دنيا الناس المادية المحسوسة ، وما النقد إلا رسالة من رسالات الطبيعة وعمل من أعمالها ، فمن المعقول أن يحتذيها في مهمته ، وأن يكون على غرارها في وضعه ، فهو — على ما يجب أن يكون — إرادة قوية تكشف وتوضح ، وتختار وتميز ، وتنفي وتثبت ، وتزجر وترشد ، قد تبتر الضعيف ، وقد تحابي القوي ، وما قصدها في ذلك إلى البطش والانتقام ، ولا إلى المداهنة والمحاباة ، ولكنها تقصد إلى صقل الخواطر ، وتهذيب المشاعر ، وتطهير الأفكار من مظاهر البساطة الأولى التي تكون للماس إذ يخرج من أحافير الأرض ، فما تزال تتعهدها بذلك حتى تقيمها على الوجه الصحيح النافع ، فاذا هي سمو بالانسانية ، وصلة بالحياة ، ومادة للخلود ، ومبعث الروعة والجلال على مدى الدهر وطول الأيام ...

والأدب والنقد يهدفان إلى غاية واحدة ، ويتعاونان في مهمة متفقة ، فالأدب — كما يقول الرافعي — يقدّر لهذا العالم قيمته الانسانية بإضافة الصور الفكرية الجميلة إليه ، ومحاولة إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة ، وسورة الغريزة ، وغرارة الطبع الحيواني ؛ والنقد من وراء الأدب في هذا كله ، يصحح له هذا « التقدير » من جميع جهاته ، ويسدده على طريقه القويم ، ويدله على الصور الرائعة التي يصح أن تكون مثلاً أعلى لما نطلبه من جمال الحياة وجمال العواطف ، ومن ثم كان النقد — كما يقول شوقي — حارس الأدب ، ومكمل الكتاب والكتب ، ومن ثم أيضاً كان النقد أساساً لكل نهوض أدبي مثمر ، فاذا ما رأيت أدباً مهذباً يغمر أصحابه بالحياة ، ويؤدي لهم غـذاء العواطف والعقول ، ويملأ نفوسهم باليقظة والحكمة والاحساس ، ويرفعهم عالياً إلى الكمال الانساني ، ثم رحت تتلمس السبب في ذلك فلن تجده إلا النقد ، ثم النقد ، ولا شيء غير النقد ...

قال لي أديب كنت أبسط له هـذا الرأي : ولكنك تعلم ياصاحبي أن أهل الفن قوم خلقهم الله أحرار المواهب ، قوم يطلبون حرية الفكر ، وذلك عندهم كل شيء ، ولعلك تذكر في ذلك قول ملتون الخالد « أعطني حرية القول ، وحرية الفكر ، وحرية الضمير ، ولا تعطني شيئاً غير ذلك » والنقد إنما هو ضرب من ضروب الحجر على هذه الحرية وحبسها عن التحليق في سماء الفن وجو الحياة الفسيح ، ولاشك أن الفنان إذا ما فقد حريته

فقد فقد عبقريته ، وتلاشت شخصيته ... ثم أنت تعلم أن حياة الفن إعجاب وتقدير ، وأن الفنان في حاجة كبيرة إلى العطف والثناء والمدد والبخور ، ولكن النقد كثيراً ما يرهق أعصاب الفنانين ... الدقيقة المرهفة — بصلف الأستاذية ، وعنت الحزازة وعبث التطفل ، وكثيراً ما هوى فنانون صرعى هذا الطغيان أو قل هذا اللؤم ، وكثيراً ما أحجم كرام فضلاء عن الظهور في الميدان ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة المضراة، وصوناً لآثارهم أن تبتلى بلئيم لا ينصف ، أو جاهل يتعسف . وقديماً قيل : أحق الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل ! وهذا ما يجعلني أعتقد أن النقد عداوة للأدب، وتهجم على كرامة الفن، وأنه طاغية مستبد ، يهدم ويثبط ، ويندفع في جبروته واستبداده لا يلوى على شيء ولا يحفل بشيء ولا يفيد في شيء ... وهذا ما جعلني أيضاً أرتاح لصنيع ألمانيا يوم حرمت النقد الأدبي ، ووقفت به عند عرض الموضوعات وبسطها دون التعليق عليها أو إبداء أي رأي . ولقد كان وزير الدعاية الألمانية على حق إذ يقول في بيانه الذي أصدره في ذلك الصدد : إن الفن لا يفقد شيئاً إذا ما بعد أولئك النقدة الأغرار من الميدان ، إذ العظمة الزائفة تسقط من غير أن يسقطها النقد ، أما أصحاب العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار ، والاحتفاظ بكرامتهم الفنية ، ويجب أن تصان العبقرية الصحيحة من كل ما يؤذيها ويعهد لسقوطها !

ولقد يبدو هذا الكلام طريفاً لبعض الناس ، وأذكر أني سمعت صداه في ندوة أدبية ، وقرأت كلاماً بمعناه في إحدى الصحف ، ولكنه في الواقع أفن من الرأي لا يصح في عقل ، ولا يستقيم في منطق ، فان النقد ليس مصادمة لحرية الفنان في شيء ولكنه نهوض بهذه الحرية إلى الأوج ، وارتفاع بها عن العبث ، وتقويم لها على المبادئ الفرعية ، والرغبات النافعة ، وإذا كان له أن يقف بالفنان عند حدود ، أو يلزمه بقيود ، فليست هي إلا الحدود الفنية ، والقيود التي هي معالم الفن نفسه ودعائم كيانه ، وبالتزامها يسمو وينهض، وبمراعاتها ينمو ويفرع. فاذا ما أباح لنفسه أن يتعداها وأن يستهين بها ، هان أمره ، وهاض شأنه وذهبت شخصيته ، وانتهت رسالته ، كتلك الثورة التي يتحدث عنها بعض الناس ، من تفريط في حق اللغة ، وعدم العناية بالأسلوب ، والاستهانة بأوضاع العرف والأخلاق ، والتقاليد والدين !

ثم لماذا يناهض النقد الأدب ؟ والنقد والأدب صنوان يجمعهما الفن إلى أصل واحد ، ويربطهما رباط العصبية والقرابة ، أو على الأقل رباط الود والصداقة ، فاذا ما نظر النقد إلى الأدب وهو ينصح له ، أو يسخر منه ، أو ينكر عليه ، أو يعجب به ، فما هو في هذا كله إلا الصديق الحدب ، والرفيق المخلص ، من واجبه أن يصور الأدب أمام نفسه بأغلاطه ومساوئه ، وصوابه ومحاسنه ، وأن يرى في ذلك الرأى الصريح المخلص ، كما يفعل الأدب تماماً إذ يصور الحياة أمام نفسها بأغلاطها ومساوئها ، وصوابها ومحاسنها ، وأن يحكم في ذلك برأيه وتقديره ، ولا عيب على النقد في صنيعه هذا ، كما لا عيب على القاضي إذا ما أعلن كلمة الحق ، والواصف إذا ما قرر حقيقة الموصوف ، والصديق إذا ما صارح صديقه بالذي فيه ، ولكن العيب ألا يؤدي ذلك جهده ، ويهمل له وسعه ؛ وإن من خطل الرأى أن نحسب النقد عداوة للأدب ، وتهجماً على كرامة الفن ، وأنه طاغية مستبد لا يحفل بشيء ولا يفيد في شيء ... فأن الطبيعة ليست بقاسية من ذهابها بالزبد ليبقى ما ينفع الناس ، والطبيب ليس بمتجبر ولا بمستبد إذا ما بتر العضو الفاسد لينجو المريض . والصائغ لا يقصد الشر إذا ما تناول حجر الماس بالاحراق والصهر والصقل ليخلص جوهره وتنجلي لمعته ، وكذلك قل في النقد إذا ما وضع الحق في نصابه ، ودافع عن الفن في نسقه الأعلى ، وعمل على تخليصه من شوائب الفضول والدعوى المزورة والمآرب المتهمة ، وإن من انقلاب الأوضاع والاستهانة بالحقائق أن نحسب التهذيب عداوة ، والصراحة تهجماً ، والتطهير هدماً وتثبيطاً ، وإذا كان بعض الأدباء لا يفيدون من النقد صقلاً وسمواً وتهذيباً وإرشاداً فليس الذنب ذنب النقد ، ولكنه التفريط منهم في الانتفاع بالرشد والاصاخة إلى النصيحة ، وما هم إلا كالمريض ، يصف الطبيب له الدواء ، ويقدر عليه الغذاء ، ويقرر له ما يأتي وما يدع ، ولكنه يستهين بهذا كله ، وما يزال حتى ينوء بعلته ، ويتلف بدائه ، ثم يتبجح فيلحى الطبيب ! !

على أننا إذ نقول النقد ، فإنما نعني ذلك الفن الجليل بقواعده المقررة ، وأصوله المحررة ، ورسالته الشريفة ، وهو شيء أبعد عن التقييم والتقريظ والاستجداء، وأنبل من العبث والغرور والتفيهق،

وأرفع من الشتم والحسد والحزازة وكل اعتبار شخصي ؛ وإن من اختلاط الأمر أن نحسب كل هذه من باب النقد ونعتبرها منه ، وما هي إلا اعتبارات رخيصة ، وسفاسف تافهة ، وشرور وآثام شأنها مع النقد شأن الأعشاب الضارة في الروضة المعطار . والنقد بريء منها ، بل إنه ليناهضها كما يناهض كل أذى وشر . ولقد صدق شوقي إذ يقول : « من نقد على غضب أسخط الحق ، ومن نقد على حقد احترق وإن ظن أنه حرق ، ومن نقد على حسد لم يخف بغيه على أحد ، ومن نقد على حب حابى وجمح به التشيع ، وإنما النقد فن كريم ، وهو آلة إنشاء ، وعدة بناء ، وليس كما يزعمه الزاعمون معول هدم ولا أداة تحطيم ... »

ثم إننا إذ نتقبل الناقد فلسنا نريده من أولئك المزورين الأدعياء الذين ليس لهم أداة النقد ، ولا عندهم وسائله ، ولكنا نعنيه من أهل النظر المميز ، والمتأمل الفاحص ، أولئك الذين لهم قدرة الحكم ، وفيهم قوة الصواب ، وعندهم وسائل الترجيح ، وغايتهم الانصاف ، وشأنهم خدمة الفن ، وهم من ضميرهم في يقظة تلقي في روعهم دائماً أن الناقد مستهدف يعرض عقله وثقافته وحكمه على الناس ، فاذا لم يخلص للحقيقة ، ولم يفطن إلى مواقع الصواب في كل هذا عرّض نفسه للزراية والسخرية ، وتدلى بعقله وفنه إلى أسفل ...

والقوم في أوربا يفهمون النقد بهذا المعنى ، ويجرون فيه على هذا الاعتبار ، والناقد لا يقوم فيهم إلا بهذه القوة وعلى هذا الشرط ، ولذا نجد النقد عندهم قد أزهر وأثمر ، وأفاد ونفع ، فهو مجلى العبقريات ودعائم النبوغ وظل التأليف ، وعضد الفن ، يذعن له الأدباء في ارتياح واطمئنان ، ويرمقونه بالاجلال والاكبار ويصيخون لكلمته بالوحي والاقتناع ، وبهذه الروح الطيبة استطاع « تين » أن يخلق « ستاندال » ويرفع من « كانت »[1] ، ويدين تسعة أعشار الطبقة الراقية من الفرنسيين في القرن التاسع كما يقول بعض المؤرخين !

أما عندنا ، فموعدنا بذلك بقية المقال .

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) مما يروى أن ستاندال الروائي المشهور بطريقته النفسية كان مبغوضا لدى النفر القليل الذي عرفه فكتب تين مقالا امتدح فيه طريقة ستاندهال فلم يمض على ذلك يومان حتى كان اسمه طلاع الأرض ، وكذلك يرون أن أوغست كانت الفيلسوف المشهور لم ينل ما ناله من الصيت والذكر إلا بعد أن قرظه تين وأثنى عليه .

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وقد سلك الكميت مسلكا متقاربا في قصائده الأربع ، فهو في ميميته يتخلص من مطلعها إلى ذكر بني هاشم فيقول فيهم :

بل هواي الذي أجنّ وأبدي ... لبني هاشم فروعِ الأنامِ
للقريبين من ندًى والبعيديـ ... ـن من الجور في عُرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النا ... سُ ومرسي قواعدِ الاسلام

إلى أن يقول فيهم وفي خصومهم من بني مروان :

ساسة لا كمن يرعى (؟) النا ... سَ سواءً ورعيةَ الأنعام
لا كعبد المليكِ أو كوليدٍ ... أو سليمان بعدُ أو كهشام
رأيُه فيهمُ كرأي ذوي الثُّلْـ ... ـةِ في الثائجاتِ جُنحَ الظلام
جزُّ ذي الصوف وانتقاء لذي المخـ ... ـة نعقًا ودعدعًا بالبهـــام
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحـ ... ـي فلا ذو إلٍّ ولا ذو زمام
فهمُ الأقربون من كلّ خيرٍ ... وهم الأبعدون من كل ذام

ثم يتخلص من ذكرهم إلى ذكر جدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيمضي في مدحه وذكر مناقبه الشريفة :

أسرة الصادق الحديث أبي القا ... سم فرعِ القُدامس القدّام
خيرُ حيّ وميتٍ من بني آ ... دم طرًّا مأمومهم والامام

إلى أن يقول فيه :

أبطحي بمكة استثقب الله ... ه ضياء العمى به والظلام
وإلى يثرب التحول عنها ... لمقام من غـــير دار مقام
هجرة حولت إلى الأوس والخز ... رج أهل الفسيل والآطام
غير دنيا مخالفاً واسم صدق ... باقياً مجده بتاه الســـلام

ثم يأخذ بعد هذا في ذكر باقي أصولهم فيقول :

ذو الجناحين وابن هالة منهم ... أســـد الله والكمي المحامي
لا ابن عم يرى كهذا ولا عـ ... ـم كهذاك ســـيد الأعمام
والوصي الذي أمال التجوبـ ... ـي به عرش أمة لانهـدام
كان أهل العفاف والمجد والخيـ ... ـر ونقض الأمور والابرام
نالنا فقده ونال ســـوانا ... باجتداع من الأنوف اصطلام
وأشتت بنا مصادر شتى ... بعد نهج السبيل ذي الآرام